وسائل الثبات على دين الله

محمد صالح المنجد

دار الوطن للنشر
الرياض - شارع العليا العام - ص.ب: ٣٣١٠
☎ ٤٦٤٤٦٥٩ - ٤٦٢٦١٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

وسائل الثبات على دين الله

الطبعـة الأولى

صفـر ١٤١١هـ

المقدمة

إن الحمدلله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

فإن الثبات على دين الله مطلب أساسي لكل مسلم صادق يريد سلوك الصراط المستقيم بعزيمة ورشد.

وتكمن أهمية الموضوع في أمور منها:

* وضع المجتمعات الحالية التي يعيش فيها المسلمون، وأنواع الفتن والمغريات التي بنارها يكتوون، وأصناف الشهوات والشبهات التي بسببها

أضحى الدين غريبًا، فنال المتمسكون به مثلاً عجيبًا «القابض على دينه كالقابض على الجمر».

ولاشك عند كل ذي لبّ أن حاجة المسلم اليوم لوسائل الثبات أعظم من حاجة أخيه أيام السلف، والجهد المطلوب لتحقيقه أكبر؛ لفساد الزمان، وندرة الاخوان، وضعف المعين، وقلة الناصر.

* كثرت حوادث الردة والنكوص على الأعقاب، والانتكاسات حتى بين بعض العاملين للإسلام مما يحمل المسلم على الخوف من أمثال تلك المصائر، ويتلمس وسائل الثبات للوصول إلى برٍ آمن.

* ارتباط الموضوع بالقلب؛ الذي يقول النبي ﷺ في شأنه: «لقلب ابن آدم أشد انقلابًا من القدر إذا اجتمعت غليأ»[1]. ويضرب عليه الصلاة والسلام للقلب مثلاً آخر فيقول: «إنما سمي القلب من تقلُّبه،

---

(١) رواه أحمد ٦/٤ والحاكم ٢/٢٨٩ وهو في السلسلة الصحيحة ١٧٧٢.

إنـما مثـل القلب كمثـل ريشة في أصل شجرة يُقلِّبها الريحُ ظهرًا لبطن»[1]. فسبق الحديثُ قول الشاعر:

وما سُمي الإنسانُ إلا لنسيه
ولا القلبُ إلا أنه يتقلب

فتثبيت هذا المتقلِّب برياح الشهوات والشبهات أمرٌ خطيرٌ يحتاج لوسائل جبارة تكافىء ضخامة المهمة وصعوبتها.

وسائل الثبات

ومن رحمة الله - عزّ وجلّ - بنا أن بيّن لنا في كتابه وعلى لسان نبيه وفي سيرته وسائل كثيرة للثبات. أستعرض معك - أيها القارىء الكريم - بعضًا منها:

أولاً: الإقبال على القرآن:

القرآن العظيم وسيلة التثبيت الأولى، وهو حبل الله المتين، والنور المبين؛ من تمسك به عصمه الله،

---

(١) رواه أحمد ٤/٤٠٨ وهو في صحيح الجامع ٢٣٦١.

ومن اتبعه أنجاه الله، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

نصّ الله على أن الغاية التي من أجلها أُنزل هذا الكتاب منجمًا مفصّلاً هي التثبيت، فقال تعالى في معرض الرد على شُبه الكفار: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً، كذلك لِنُثبتَ به فؤادك ورتّلناه ترتيلاً. ولا يأتُونك بِمَثلٍ إلا جئناك بالحقّ وأحسنَ تفسيراً﴾ [سورة الفرقان، الآيتان: ٣٢، ٣٣]

لماذا كان القران مصدرا للتثبيت؟؟

* لأنه يزرع الإيمان ويزكي النفس بالصلة بالله.

* لأن تلك الآيات تنزل بردًا وسلامًا على قلب المؤمن فلا تعصف به رياح الفتنة، ويطمئن قلبه بذكر الله.

* لأنه يزود المسلم بالتصورات والقيم الصحيحة التي يستطيع من خلالها أن يُقوِّم الأوضاع من حوله، وكذا الموازين التي تهيء له الحكم على

الأمور فلا يضطرب حكمه، ولا تتناقض أقواله باختلاف الأحداث والأشخاص.

* أنه يردُّ على الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين كالأمثلة الحية التي عاشها الصدر الأول، وهذه نماذج:

ـ ما هو أثر قول الله عزّ وجلّ: ﴿ما ودّعك ربُّك وما قَلَى﴾ [سورة الضحى، الآية:٣] على نفس رسول الله ﷺ، لما قال المشركون: (وُدِّع محمد...)[1]؟

ـ ما هو أثر قول الله عزّ وجلّ: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجميٌّ وهذا لسانٌ عربيٌّ مبينٌ﴾ [سورة النحل، الآية:١٠٣] لما ادعى كفار قريش أن محمدًا ﷺ إنما يعلمه بشر وأنه يأخذ القرآن عن نجار رومي بمكة؟

ـ ما هو أثر قول الله عزّ وجلّ: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ [سورة التوبة، الآية:٤٩] في نفوس المؤمنين لما قال المنافق (ائذن لي ولا تفتنّي).

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٥٦/١٢.

أليس تثبيتًا على تثبيت، وربطًا على القلوب المؤمنة، وردًا على الشبهات، وإسكاتًا لأهل الباطل . . ؟ بلى وربي .

ومن العجب أن الله يعد المؤمنين في رجوعهم من الحديبية بغنائم كثيرة يأخذونها (وهي غنائم خيبر) وأنه سيعجلها لهم وأنهم سينطلقون إليها دون غيرهم وأن المنافقين سيطلبون مرافقتهم وأن المسلمين سيقولون لن تتبعونا وأنهم سيصرّون يريدون أن يبدلوا كلام الله وأنهم سيقولون للمؤمنين بل تحسدوننا وأن الله أجابهم بقوله: ﴿بل كانوا لا يفقهون حديثًا﴾ ثم يحدث هذا كلّه أمام المؤمنين مرحلة بمرحلة وخطوة بخطوة وكلمة بكلمة .

ـ ومن هنا نستطيع أن ندرك الفرق بين الذين ربطوا حياتهم بالقرآن وأقبلوا عليه تلاوة وحفظًا وتفسيرًا وتدبرًا ؛ منه ينطلقون، وإليه يفيئون وبين من جعلوا كلام البشر جُلّ همهم وشغلهم الشاغل .

ـ ويا ليت الذين يطلبون العلم يجعلون للقرآن تفسيره نصيبًا كبيرًا من طلبهم.

ثانيا: التزام شرع الله والعمل الصالح:

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقول الثَّابتِ في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، ويُضِلّ الله الظالمين ويفعلُ الله ما يشاءُ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٢٧].

قال قتادة: (أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح [وفي الآخرة] في القبر). وكذا روي عن غير واحد من السلف[١]. وقال سبحانه: ﴿ولو أنّهم فعلوا ما يُوعظون به لكان خيرًا لهم وأشدّ تثبيتًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٦٦]. أي على الحق.

وهذا بيّن، وإلا فهل نتوقع ثباتًا من الكسالى القاعدين عن الأعمال الصالحة إذا أطلت الفتنةُ برأسها وادلهم الخطب؟! ولكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم صراطًا مستقيمًا. ولذلك كان ﷺ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٤٢١).

يثابر على الأعمال الصالحة، وكان أحبّ العمل إليه أدومه وإن قلّ. وكان أصحابه إذا عملوا عملاً أثبتوه. وكانت عائشة رضي الله عنها إذا عملت العمل لزمته. وكان ﷺ يقول: «من ثابر على اثنتي عشرة ركعة وجبت له الجنة»[1] (أي السنن الرواتب). وفي الحديث القدسي: «ولايزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه»[2].

ثالثاً: تدبر قصص الأنبياء ودراستها للتأسي والعمل:

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وكلاً نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين﴾ [سورة هود، الآية: ١٢٠].

فما نزلت تلك الآيات على عهد رسول الله ﷺ للتلهي والتفكه، وإنما لغرض عظيم هو تثبيت فؤاد

(١) سنن الترمذي ط شاكر. (٢/٢٧٣) وقال: الحديث حسن أو صحيح. وهو في صحيح النسائي ١/٣٨٨ وصحيح الترمذي ١/١٣١.

(٢) رواه البخاري. انظر فتح الباري ١١/٣٤٠.

رسول الله ﷺ وأفئدة المؤمنين معه.

* فلو تأملت يا أخي قول الله عزّ وجلّ: ﴿قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين﴾ [سورة الأنبياء، الآيات:٦٨-٧٠] قال ابن عباس: (كان آخر قول إبراهيم حين أُلقي في النار «حسبي الله ونعم الوكيل»)[1].

ألا تشعر بمعنى من معاني الثبات - أمام الطغيان والعذاب - يدخل نفسك وأنت تتأمل هذه القصة؟

* لو تدبرت قول الله عز وجل في قصة موسى: ﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون. قال كلا إن معي ربي سيهدين﴾ [سورة الشعراء، الآيتان: ٦١، ٦٢].

ألا تحس بمعنى آخر من معاني الثبات عند ملاحقة الظالمين، والثبات في لحظات الشدة وسط

(١) الفتح (٨/٢٢٩).

صرخات اليائسين وأنت تتدبر هذه القصة؟

* لو استعرضت قصة سحرة فرعون، ذلك المثل العجيب للقلّة التي ثبتت على الحقّ بعدما تبيّن.

ألا ترى أن معنىً عظيمًا من معاني الثبات يستقر في النفس أمام تهديدات الظالم وهو يقول: ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم إنــه لكبـيركم الـذي علّمكم السّحـر، فلأقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنّكم في جذوع النخل ولتعلمُنّ أيّنا أشدّ عذابًا وأبقى﴾ [سورة طه، الآية: ٧١].

ثبات القلة المؤمنة الذي لا يشوبه أدنى تراجع وهم يقولون: ﴿لن نؤثِرَكَ على ماجاءنا من البيّنات والذي فطرنـا، فاقض ما أنت قاضٍ، إنّما تقضِي هذه الحياةَ الدُّنيا﴾ [سورة طه، الآية: ٧٢].

* وهكذا قصة المؤمن في سورة يسٓ ومؤمن آل فرعـون وأصحاب الأخدود وغيرها يكاد الثبات يكون أعظم دروسها قاطبة.

رابعاً: الدعاء:

من صفات عباد الله المؤمنين أنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء أن يثبتهم:

- ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.
- ربّنا أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا.

ولما كانت «قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء»[1] كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مُقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»[2].

خامساً: ذكر الله:

وهو من أعظم أسباب التثبيت.

* وتأمل في هذا الاقتران بين الأمرين في قوله عزّ

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم عن ابن عمر مرفوعًا انظر مسلم بشرح النووي ١٦/٢٠٤.

(٢) رواه الترمذي عن أنس مرفوعًا تحفة الأحوذي ٦/٣٤٩ وهو في صحيح الجامع (٧٨٦٤).

وجلّ: ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لَقِيتُمْ فئة فاثْبتوا واذكروا الله كثيراً﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤٥]. فجعله من أعظم ما يعين على الثبات في الجهاد.

(وتأمل أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها)(١). بالرغم من قلة عدد وعدة الذاكرين الله كثيراً.

* وبماذا استعان يوسف عليه السلام في الثبات أمام فتنة المرأة ذات المنصب والجمال لما دعته إلى نفسها؟ ألم يدخل في حصن «معاذ الله» فتكسرت أمواج جنود الشهوات على أسوار حصنه؟

وكذا تكون فاعلية الأذكار في تثبيت المؤمنين.

سادساً: الحرص على أن يسلك المسلم طريقاً صحيحاً

والطريق الوحيد الصحيح الذي يجب على كل مسلم سلوكه هو طريق أهل السنة والجماعة؛ طريق

---

(١) ما بين القوسين مقتبس من كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الداء والدواء.

الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، أهل العقيدة الصافية والمنهج السليم واتباع السنة والدليل، والتميز عن أعداء الله ومفاصلة أهل الباطل..

وإذا أردت أن تعرف قيمة هذا في الثبات فتأمل وسائِلْ نفسك: لماذا ضلّ كثير من السابقين واللاحقين وتحيروا ولم تثبت أقدامهم على الصراط المستقيم ولا ماتوا عليه؟، أو وصلوا إليه بعدما انقضى جلُّ عُمرهم وأضاعوا أوقاتًا ثمينة من حياتهم؟؟.

فترى أحدهم يتنقّل في منازل البدع والضلال من الفلسفة إلى علم الكلام والاعتزال إلى التحريف والتأويل إلى التفويض والارجاء، ومن طريقة في التصوف إلى أخرى..

وهكذا أهل البدع يتحيرون ويضطربون؛ وانظر كيف حُرِم أهل الكلام الثبات عند الممات فقد قال السلف: (أكثر الناس شكًا عند الموت أهل الكلام).

لكن فكر وتدبر هل رجع أحدٌ من أهل السنة

والجماعة عن طريقه سَخْطَةً بعد إذ عرفه وفقهه وسلكه؟ قد يتركه لأهواء وشهوات أو لشبهات عرضت لعقله الضعيف، لكن لا يتركه لأنه قد رأى أصح منه أو تبيَّن له بطلانه.

ومصداق هذا مساءلة هرقل لأبي سفيان عن أتباع محمد ﷺ؟ قال هرقل لأبي سفيان: (فهل يرتد أحدٌ منهم سَخْطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟) قال أبو سفيان: لا. ثم قال هرقل: (وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب)[1].

سمعنا كثيراً عن كبار تنقلوا في منازل البدع وآخرين هداهم الله فتركوا الباطل وانتقلوا إلى مذهب أهل السنة والجماعة ساخطين على مذاهبهم الأولى، ولكن هل سمعنا العكس؟!

فإن أردت الثبات فعليك بسبيل المؤمنين.

---

(١) رواه البخاري - الفتح (١/٣٢).

سابعاً: التربيـــة:

الـتربيـة الإيمانية العلمية الواعية المتدرجة عامل أساسيّ من عوامل الثبات.

الـتربيـة الإيـمانيـة: **التي تحيي القلب والضمـير بالخـوف والرجاء والمحبة، المنافية للجفاف الناتج من البعـد عن نصـوص القـرآن والسنـة، والعكـوف على أقاويل الرجال.**

الـتربية العلمية: **القائمة على الدليل الصحيح، المنافية للتقليد والأمعية الذميمة.**

الـتربيـة الـواعية: **التي لا تعرف سبيل المجرمين وتـدرس خطط أعـداء الإسـلام وتحيط بالواقع علمًا، وبالأحداث فهمًا وتقويمًا، المنافية للانغلاق والتقوقع على البيئات الصغيرة المحدودة.**

التربية المتدرجة: **التي تسير بالمسلم شيئًا فشيئًا، ترتقي به في مدارج كمالـه بتخـطيط موزون، والمنافية للارتجال والتسـرع والقفزات المحطِّمة.**

ولكي ندرك أهمية هذا العنصر من عناصر الثبا[redacted]
فلنعد إلى سيرة رسول الله ﷺ ونسائل أنفسنا.

*** ما هو مصدر ثبات صحابة النبي ﷺ في مكة، إبّان فترة الاضطهاد؟**

*** كيف ثبت بلال وخباب ومصعب وآل ياسر وغيرهم من المستضعفين وحتى كبار الصحابة في حصار الشعب وغيره؟**

*** هل يمكن أن يكون ثباتهم بغير تربية عميقة** من مشكاة النبوة، صقلت شخصياتهم؟

○ لنأخذ رجلاً صحابيًا مثل خباب بن الأرت رضي الله عنه، **الذي كانت مولاته تحمي أسياخ الحديد حتى تحمرّ ثم تطرحه عليها عاري الظهر فلا يطفئها إلا ودك** (شحم) ظهره حين يسيل عليها، **ما الذي جعله يصبر على هذا كله؟**

○ وبلال تحت الصخرة في الرمضاء، وسُميّة في **الأغلال والسلاسل..**

• وسؤال منبثق من موقف آخر في العهد المدني، من الذي ثبت مع النبي ﷺ في حُنين لما انهزم أكثر المسلمين؟ هل هم حديثو العهد بالإسلام ومُسلِمةُ الفتح ـ الذين لم يتربوا وقتًا كافيًا في مدرسة النبوة والذين خرج كثير منهم طلبًا للغنائم؟ كلا.. إنّ غالب من ثبت هم أولئك الصفوة المؤمنة التي تلقت قدرًا عظيمًا من التربية على يد رسول الله ﷺ.

لو لم تكن هناك تربية ترى هل كان سيثبت هؤلاء؟

ثامنا: الثقة بالطريق

لاشك أنه كلما ازدادت الثقة بالطريق الذي يسلكه المسلم، كان ثباته عليه أكبر.. **ولهذا وسائل منها**

* استشعار أنّ الصراط المستقيم الذي تسلكه ـ ياأخي ـ ليس جديدًا ولا وليد قرنك وزمانك، وإنّما هو طريق عتيق(*) قد سار فيه مِنْ قبلك الأنبياء

(*) عتيق: صفة مدح ـ مثل: «وليطوفوا بالبيت العتيق»، و«عليكم

والصديقون والعلماء والشهداء والصالحون، فتز
غربتك، وتتبدل وحشتك أنسًا، وكآبتك فرحًا وسرورًا، لأنك تشعر بأن أولئك كلهم إخوة لك في الطريق والمنهج.

* الشعور بالاصطفاء؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ [سورة النمل، الآية: ٥٩].

﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ [سورة فاطر، الآية: ٣٢].

﴿وكذلك يجتبيك ربُّك ويُعَلِّمُك من تأويل الأحاديث﴾ [سورة يوسف، الآية: ٦]..

وكما أن الله اصطفى الأنبياء فللصالحين نصيب من ذلك الاصطفاء وهو ما ورثوه من علوم الأنبياء.

= بالأمر العتيق»، وفي لسان العرب العتيق الكريم الرائع من كل شيء ١٠/٢٣٦.

● ماذا يكون شعورك لو أن الله خلقك جمادًا، أو دابّـةً، أو كافرًا ملحدًا، أو داعيًا إلى بدعة، أو فاسقًا، أو مسلمًا غير داعية لإسلامه، أو داعية في طريق متعدد الأخطاء؟

○ ألا ترى أن شعورك باصطفاء الله لك؛ وأنْ جعلك داعية من أهل السنة والجماعة من عوامل ثباتك على منهجك وطريقك؟

تاسعًا: ممارسة الدعوة إلى الله عز وجل:

النفس إن لم تتحرك تأسن، وإن لم تنطلق تتعفن، ومن أعظم مجالات انطلاق النفس: الدعوة إلى الله، فهي وظيفة الرّسل، ومخلصة النّفس من العذاب؛ فيها تتفجر الطاقات، وتُنجز المهمات (فلذلك فادع، واستقم كما أمرت). وليس يصح شيء يقال فيه (فلان لا يتقدم ولا يتأخر) فإن النفس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، والإيمان يزيد وينقص.

والدعوة إلى المنهج الصحيح ـ ببذل الوقت، وكدّ

الفكـــر، وسعي الجسـد، وانـطلاق اللسـان، [redacted] تصبـح الـدعـوة همّ المسلم وشغله الشـاغل - يقطع الطريق على محاولات الشيطان بالإضلال والفتنة.

زد على ذلك ما يحدث في نفس الداعية من الشعور بالتحدي تجاه العوائق، والمعاندين، وأهل الباطل، وهو يسير في مشواره الدّعويّ؛ فيرتقي إيمانه، وتقوى أركانه.

فتكون الدعوة بالإضافة لما فيها من الأجر العظيم وسيلة من وســائـل الثبـات، والحـماية من الـتراجـع والتقهقر؛ لأن الذي يُهاجم لا يحتاج للدّفاع. والله مع الـدعـاة يثبتهم ويسـدد خطاهم. والداعية كالطبيب يحارب المرض بخبرته وعلمه، وبمحاربته في الآخرين فهو أبعد من غيره عن الوقوع فيه.

نظرة ثانية حول العناصر المفيدة:

تلك العناصر التي من صفاتها ما أخبرنا به عليه الصـلاة والسلام: «إنّ من الناس ناسًا مفاتيح للخير

مغاليق للشرّ»[1].

البحث عن العلماء والصالحين والدعاة المؤمنين، والالتفاف حولهم مُعين كبير على الثبات. وقد حدثت في التاريخ الإسلامي فتن ثَبَّتَ الله فيها المسلمين برجال.

ومن ذلك: ما قاله علي بن المديني رحمه الله تعالى: (أعزّ الله الدين بالصدّيق يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة)[2].

وتأمل ما قاله ابن القيم رحمه الله عن دور شيخه شيخ الإسلام في التثبيت: (وكنّا إذا اشتدّ بنا الخوف، وساءت منّا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كلّه عنّا. وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينةً. فسبحان

---

(١) حسن ـ رواه ابن ماجة عن أنس مرفوعاً (٢٣٧) وابن أبي عاصم في كتاب السنة ١/١٢٧ وانظر السلسلة الصحيحة (١٣٣٢).
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/١٩٦.

من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل، وآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها[1].

وهنا تبرز الأخوة الإسلامية كمصدر أساسي للتثبيت، فإخوانك الصالحون والقدوات والمربون هم العون لك في الطريق، والركن الشّديد الذي تأوي إليه فيثبتوك بما معهم من آيات الله والحكمة.. الزمهم وعشْ في أكنافهم وإياك والوحدة فتتخطفك الشياطين فإنما يأكل الذئبُ من الغنم القاصية.

الحادي عشر: الثقة بنصر الله وأن المستقبل للإسلام:

نحتاج إلى الثبات كثيرًا عند تأخر النصر، حتى لا تزلّ قدم بعد ثبوتها. قال الله تعالى: ﴿وكأيّن من نبي قاتل معه ربّيُّونَ كثير، فما وهَنُوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استَكَانُوا والله يحبّ الصابرين. وما كان قولهم إلاّ أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا

---

(١) الوابل الصيب. ط بشير عيون ص ٩٧.

وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾ [سورة آل عمران، الآيات: ١٤٦-١٤٨].

ولما أراد رسول الله ﷺ أن يثبت أصحابه المعذبين أخبرهم بأن المستقبل للإسلام في أوقات التعذيب والمحن. فماذا قال؟

جاء في حديث خباب مرفوعًا عند البخاري: «وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه»[1].

فَعَرْض أحاديث البشارة بأن المستقبل للإسلام على الناشئة مُهمٌّ في تربيتهم على الثبات.

الثاني عشر: معرفة حقيقة الباطل وعدم الاغترار به:

في قول الله عزّ وجلّ: ﴿لا يغُرّنّك تقلّب الذين كفروا في البلاد﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٩٦] تسرية عن

---

(١) رواه البخاري. انظر فتح الباري ٧/١٦٥.

المؤمنين وتثبيت لهم.

وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿فأمّا الزّبد فيذهبُ جُفاءً﴾ [سورة الرعد، الآية:١٧]. عبرة لأولي الألباب في عدم الخوف من الباطل والاستسلام له.

* ومن طريقة القرآن فضح أهل الباطل وتعرية أهدافهم ووسائلهم ﴿وكذلك نُفَصّلُ الآياتِ ولتستبينَ سبيلُ المجرمين﴾ [سورة الأنعام، الآية:٥٥] حتى لا يؤخذ المسلمون على حين غرة، وحتى يعرفوا من أين يؤتى الإسلام.

* وكم سمعنا ورأينا حركات تهاوت ودعاة زلت أقدامهم ففقدوا الثبات لما أتوا من حيث لم يحتسبوا بسبب جهلهم بأعدائهم.

الثالث عشر: استجماع الأخلاق المعينة على الثبات:

وعلى رأسها الصبر، ففي حديث الصحيحين: «ما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسعَ من الصبر»[1] وأشد

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة ـ باب الاستعفاف عن المسألة. ومسلم في كتاب الزكاة ـ باب فضل التعفف والصبر.

الصبر عند الصدمة الأولى، وإذا أصيب المرء بما لم يتوقع تحصل النكسة ويزول الثبات إذا عُدم الصبر.

* تأمل فيما قاله ابن الجوزي رحمه الله: (رأيت كبيرًا قارب الثمانين وكان يحافظ على الجماعة فمات ولد لابنته، فقال: ما ينبغي لأحد أن يدعو، فإنه ما يستجيب. ثم قال: إن الله تعالى يعاند فما يترك لنا ولدًا)[٢]. تعالى الله عن قوله علوًّا كبيرًا.

* لما أصيب المسلمون في أحد لم يكونوا ليتوقعوا تلك المصيبة لأن الله وعدهم بالنصر، فعلمهم الله بدرس شديد؛ بالدماء والشهداء: ﴿أو لَـمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنىٰ هذا؟ قل هو من عند أنفسكم﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٦٥]. ماذا حصل من عند أنفسهم؟

فشلتم وتنازعتم في الأمر. وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا.

---

(٢) الثبات عند المات لابن الجوزي ط. دار الكتب العلمية ص٣٤.

الرابع عشر: وصية الرجل الصالح:

عندما يتعرض المسلم لفتنة ويبتليه ربه ليمحصه، يكون من عوامل الثبات أن يقيض الله له رجلًا صالحًا يعظه ويثبته، فتكون كلمات ينفع الله بها، ويسدد الخطى، وتكون هذه الكلمات مشحونة بالتذكير بالله، ولقائه، وجنته، وناره.

وهاك أخي، هذه الأمثلة من سيرة الإمام أحمد رحمه الله، الذي دخل المحنة ليخرج ذهبًا نقيًّا.

لقد سيق إلى المأمون مقيدًا بالأغلال، وقد توعده وعيدًا شديدًا قبل أن يصل إليه، حتى لقد قال خادم للإمام أحمد:

(يعزّ عليّ ياأبا عبدالله، أن المأمون قد سلّ سيفًا لم يسلّه قبل ذلك، وأنه يقسم بقرابته من رسول الله ﷺ، لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف)[1].

---

(١) البداية والنهاية (١/٣٣٢).

وهنا ينتهز الأذكياء من أهل البصيرة الفرصة ليلقوا إلى إمامهم بكلمات التثبيت؛ ففي السير للذهبي (٢٣٨/١١) عن أبي جعفر الأنباري قال: «لما حُمِلَ أحمد إلى المأمون أخبرت، فعبرت الفرات، فإذا هو جالس في الخان، فسلمت عليه.

فقال: ياأبا جعفر تعنّيت

فقلت: ياهذا، أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبنّ خلق، وإن لم تُجب ليمتنعنّ خلق من الناس كثير. ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك، فإنك تموت، لابد من الموت، فاتق الله ولا تجب.

فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله.

ثم قال: ياأبا جعفر، أعِدْ..

فأعدت عليه وهو يقول: ما شاء الله.. أ.هـ».

وقال الإمام أحمد في سياق رحلته إلى المأمون:

«صرنا إلى الرحبة، ورحلنا منها في جوف الليل، فعرض لنا رجل فقال: أيكم أحمد بن حنبل.

فقيل له: هـذا.
فقال للجمّال: على رِسلِكَ.. ثم قال:
(ياهذا، ما عليك أن تُقتل هاهنا، وتدخل الجنة).
ثم قال: أستودعك الله، ومضى.
فسألت عنه، فقيل لي، هذا رجل من العرب، من ربيعة، يعمل الصوف في البادية، يقال له: جابر بن عامر، يُذكر بخير»[1].

وفي البداية والنهاية: أن الأعرابي قال للإمام أحمد:

(ياهذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤمًا عليهم، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه، فيجيبوا؛ فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله، فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تُقتل).

---
(١) سير أعلام النبلاء (١١/٢٤١).

قال الإمام أحمد: وكان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع عن ذلك الذي يدعونني إليه[1].

وفي رواية أن الإمام أحمد قال: (ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق)[2]. قال: (ياأحمد إن يقتلك الحق؛ مُتّ شهيدًا، وإن عشت؛ عشت حميدًا.. فقوى قلبي[3]).

ويقول الإمام أحمد عن مرافقه الشاب (محمد بن نوح) الذي صمد معه في الفتنة:

ما رأيت أحدًا ـ على حداثة سنه، وقَدْر علمه ـ أقومَ بأمر الله من محمد بن نوح، إني لأرجو أن يكون قد خُتِمَ له بخير.

---

(١) البداية والنهاية (١/٣٣٢).

(٢) اسم بلدة بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات. السير (١١/٢٤١).

(٣) سير أعلام النبلاء (١١/٢٤١).

قال لي ذات يوم: (يا أبا عبدالله، الله الله، إنك لست مثلي؛ أنت رجلٌ يُقتدى بك، قد مدّ الخلق أعناقهم إليك؛ لما يكون منك. فاتق الله، واثبت لأمر الله.

فمات وصليت عليه ودفنته[1].

وحتى أهل السجن الذين كان يصلي بهم الإمام أحمد وهو مقيّد، قد ساهموا في تثبيته.

فقد قال الإمام أحمد مرّة في الحبس: (لست أبالي بالحبس ـ ما هو ومنزلي إلا واحد ـ ولا قتلاً بالسيف، وإنما أخاف فتنة السوط).

فسمعه بعض أهل الحبس فقال: (لا عليك يا أبا عبدالله، فما هو إلا سوطان، ثم لا تدري أين يقع الباقي).

فكأنه سُرّي عنه[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/٢٤٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (١١/٢٤٠).

فاحرص أيها الأخ الكريم على طلب الوصية من الصالحين: وأعقلها إذا تُليت عليك.

- اطلبها قبل سفر إذا خشيت مما قد يقع فيه.
- اطلبها أثناء ابتلاء، أو قبل محنة متوقعة.
- اطلبها إذ عُينت في منصب أو ورثت مالاً وغنى.

وثبت نفسك، وثبت غيرك والله ولي المؤمنين.

الخامس عشر: التأمل في نعيم الجنة وعذاب النار وتذكر الموت:

والجنة بلاد الأفراح، وسلوة الأحزان، ومحط رحال المؤمنين والنفس مفطورة على عدم التضحية والعمل والثبات إلا بمقابل يهوّن عليها الصعاب، ويذلل لها ما في الطريق من عقبات ومشاق.

فالذي يعلم الأجر تهون عليه مشقة العمل، وهو يسير ويعلم بأنه إذا لم يثبت فستفوته جنة عرضها السموات والأرض، ثم إن النفس تحتاج إلى ما يرفعها من الطين الأرضي ويجذبها إلى العالم العلوي.

وكـان النبيُّ ﷺ يستخـدم ذكـر الجنـة في [redacted] أصحابه، ففي الحديث الحسن الصحيح مرّ رسول الله ﷺ بياسر وعمّار وأمّ عمّار وهم يؤذون في الله تعالى فقال لهم: «صبراً آل ياسر صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[1].

وكذلك كان ﷺ يقول للأنصار: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» متفق عليه.

وكـذا من تأمـل حال الفـريقـين في القـبر، والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، وسائر منازل الآخرة.

كما أن تذكـر المـوت يحمي المسلم من الـتردي، ويوقفه عند حدود الله فلا يتعداها. لأنه إذا علم أن الموت أدنى من شراك نعله، وأن ساعته قد تكون بعد لحظات، فكيف تسوّل له نفسه أن يزلّ، أو يتمادى في الانحراف، ولأجل هذا قال ﷺ «اكثروا من ذكر هادم اللذات»[2].

---

(١) رواه الحاكم ٣/٣٨٣، وهو حديث حسن صحيح، انظر تخريجه في فقه السيرة تحقيق الألباني ص١٠٣.

(٢) رواه الترمذي ٢/٥٠ وصححه في ارواء الغليل ٣/١٤٥.

مواطن الثبات

وهي كثيرة تحتاج إلى تفصيل، نكتفي بسرد بعضها على وجه الإجمال في هذا المقام:

أولاً: الثبات في الفتن:

التقلبات التي تصيب القلوب سببها الفتن، فإذا تعــرض الـقـلـب لفتن السراء والضراء فلا يثبت إلا أصحاب البصيرة الذين عمَّر الإيمان قلوبهم.

ومن أنواع الفتن:

* فتنة المال: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون﴾ [سورة التوبة، الآيتان: ٧٥، ٧٦].

* فتنة الجاه: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا. ولا تطع من أغفلنا قلبه

عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا﴾ [سورة الكهف، الآية: ٢٨].

وعن خطورة الفتنتين السابقتين قال (ﷺ) «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[1] والمعنى أن حرص المرء على المال والشرف أشد فسادًا للدين من الذئبين الجائعين أرسلا في غنم.

* فتنة الزوجة: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم فاحذروهم﴾ [سورة التغابن، الآية١٤].

* فتنة الأولاد: «الولد مجبنة مبخلة محزنة»[2].

* فتنة الاضطهاد والطغيان والظلم: ويمثلها أروع تمثيل قول الله عزّ وجلّ: ﴿قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٤٦٠ وهو في صحيح الجامع ٥٤٩٦.
(٢) رواه أبو يعلى ٢/ ٣٠٥ وله شواهد، وهو في صحيح الجامع ٧٠٣٧.

بالله العزيز الحميد. الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد﴾ [سورة البروج، الآيات: ٤-٩].

وروى البخاري عن خباب رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة. فقال عليه السلام: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد، من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه»[1].

* فتنة الدجال: وهي أعظم فتن المحيا: «ياأيها الناس إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله آدم أعظم من فتنة الدجال... ياعباد الله، أيها الناس: فاثبتوا فإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه قبلي نبي...»[2].

---

(١) رواه البخاري، أنظر فتح الباري ١٢/٣١٥.
(٢) رواه ابن ماجه [illegible] انظر صحيح الجامع [illegible].

وعن مراحل ثبات القلوب وزيغها أمام الفتن [redacted] النبي ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين؛ على أبيض مثل الصفا؛ فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض، والآخر أسود مُربدًا كالكوز مُجخيًا لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه»[1].

ثانيا: الثبات في الجهاد:

﴿يـاأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٤٥]. ومن الكبائر في ديننا الفرار من الزحف، وكان عليه الصلاة والسلام وهو يحمل التراب على ظهره

---

(١) رواه الإمام أحمد ٥/٣٨٦، ومسلم ١/١٢٨ واللفظ له.
عرض الحصير: أي تؤثر الفتن في القلب كتأثير الحصير في جنب النائم عليه.
مربادًا: بياض شديد قد خالطه سواد.
مجخيًا: مقلوبًا، منكوسًا.

في الخندق يردد مع المؤمنين: «وثبت الأقدام إن لاقينا»[1].

ثالثا: الثبات على المنهج:

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً﴾ [سورة الأحزاب، الآية:٢٣] مبادئهم أغلى من أرواحهم. إصرار لا يعرف التنازل.

رابعا: الثبات عند الممات:

أما أهل الكفر والفجور فإنهم يحرمون الثبات في أشد الأوقات كربة فلا يستطيعون التلفظ بالشهادة عند الموت، وهذا من علامات [illegible] الخاتمة كما قيل لرجل عند موته: قل لا إله إلا الله فجعل يحرّك رأسه يمينًا وشمالاً يرفض قولها.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الغزوات. باب غزوة الخندق انظر الفتح ٣٩٩/٧.

وآخر يقول عند موته: «هذه قطعة جيدة. هذه مشتراها رخيص».

وثالث يذكر أسماء قطع الشطرنج.

ورابع يدندن بألحان أو كلمات أغنية، أو ذكر معشوق.

ذلك لأن مثل هذه الأمور أشغلتهم عن ذكر الله في الدنيا.

وقد يرى من هؤلاء سواد وجه أو نتن رائحة، أو صرف عن القبلة عند خروج أرواحهم. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أما أهل الصلاح والسنة فإن الله يوفقهم للثبات عند المات. فينطقون بالشهادتين.

وقد يُرى من هؤلاء تهلل وجه أو طيب رائحة ونوع استبشار عند خروج أرواحهم.

وهذا مثال لواحد ممن وفقهم الله للثبات في نازلة الموت، إذ أبو زرعة الرازي أحد أئمة أهل الحديث، وهذا سياق قصته:

قال أبو جعفر محمد بن علي ورّاق أبي زرعة.
حضرنا أبا زرعة بما شهران[1]، وهو في السَّوْقِ (أي عند احتضاره) وعنده أبو حاتم وابن واره والمنذر بن شاذان وغيرهم، فذكروا حديث التلقين «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» واستحيوا من أبي زرعة أن يلقنوه. فقالوا تعالوا نذكر الحديث، فقال ابن واره: حدثنا أبو عاصم حدثنا عبدالحميد بن جعفر عن صالح، وجعل يقول ابن أبي ـ ولم يجاوزه ـ فقال أبو حاتم: حدثنا بُندار حدثنا أبو عاصم، عن عبدالحميد بن جعفر، عن صالح، ولم يجاوز. والباقون سكتوا فقال أبو زرعة وهو في السَّوْقِ «وفتح عينيه» حدثنا بُندار حدثنا أبو عاصم حدثنا عبدالحميد عن صالح ابن أبي عريب عن كثير بن مرّة عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» وخرجت روحه رحمه الله[2].

---

(١) من قرى الري.
(٢) سير أعلام النبلاء مجلد ١٣/٧٦، ٨٥.

ومثل هؤلاء قال الله فيهم: ﴿إن الذين قالوا [redacted] الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ [سورة فصلت، الآية: ٣٠].

اللهم اجعلنا منهم، اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد صالح المنجد

المقدمــة	٥
وسائل الثبات	٧
الإقبال على القرآن	٧
لماذا كان القرار مصدرا للتثبيت	٨
التزام شرع الله والعمل الصالح	
تدبر قصص الأنبياء ودراستها للتأسي والعمل	١٢
الدعـــاء	١٥
ذكــر الله	١٥
الحرص على أن يسلك المسلم طريقا صحيحا	١٦
التربيــة	١٩
الثقة في الطريق	٢١
ممارسة الدعوة إلى الله عز وجل	٢٣
الالتفاف حول العناصر المثبتة	٢٤
الثقة بنصر الله وأن المستقبل للإسلام	٢٦
معرفة حقيقة الباطل وعدم الاغترار به	٢٧
استجماع الأخلاق المعينة على الثبات	٢٨
وصية الرجل الصالح	٣٠
التأمل في نعيم الجنة وعذاب النار وتذكر الموت	٣٥
مواطن الثبات	٣٧
الثبات في الفتن	٣٨
الثبات في الجهاد	٤٠
الثبات على المنهج	٤١
الثبات عند المهات	٤١